الفصل السادس

لمحات من الاتجاه الأخلاقى
عند الصوفية

- التصوف والأخلاق ·
- الأخلاق عند الغزالى ·
- الأخلاق العملية عند الغزالى ·

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السادس

لمحات من الاتجاه الأخلاقى عند الصوفية
التصوف والأخلاق

هناك تعريفات كثيرة للتصوف ، وتسير هذه التعريفات فى ثلاث اتجاهات رئيسية هى : الاتجاه الأخلاقى وهو الذى يربط التصوف بالسلوك والأخلاق - والاتجاه الذى يربط التصوف بالزهد والعبادة والاتجاه الذى يربط بين التصوف والمعرفة والمشاهدة ورؤية القلب ، وهو يعبر عنه بالاتجاه الروحى .

والذى يهمنا فى هذه الاتجاهات هو الاتجاه الأخلاقى ، فإننا نجد أن كثيرا من الصوفية يربطون بين التصوف والأخلاق ، ويعرفونه تعريفا أخلاقيا ، ونذكر على سبيل المثال ، تعريف الجنيد للتصوف : « بأنه تصفية القلب عن مواقف البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة الدواعى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء على الحقيقة واتباع الرسول ﷺ فى الشريعة »(١) .

فالتصوف بذلك هو ضبط النفس ، وعدم الانقياد إلى الشهوات ، والبعد عن الرذائل ، والتمسك بالفضائل ، ونجد هذا المعنى يتكرر كثيرا فى تعريفات الصوفية للتصوف ، ولقد أورد القشيرى الكثير من التعريفات الأخلاقية للتصوف ، وعلى سبيل المثال ، تعريف التصوف بأنه : « الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى » وأيضا التصوف « أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم مع قوم كرام » بل إن « الكنانى » قد جعل الأخلاق معيارا للتصوف ، تزيد درجته بزيادة الأخلاق فيقول : « التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء »(٢) .

---

(١) الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٥

(٢) القشيرى الرسالة القشيرية ص٥٥١ - ٥٥٤

ولقد مر التصوف بأدوار عديدة ، إلا أن خصائصه المميزة فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ، كانت خصائص أخلاقية ، وهذا ما جعل الشيخ مصطفى عبد الرازق يعد التصوف فى أول عهده بالتكوين العلمى علما للأخلاق الدينية الإسلامية ومعانى العبادة ، مستدلا على ذلك بما قاله ابن القيم المتوفى ٧٥٦هـ فى (مدارج السالكين) : « واجتمعت الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق »[١] .

والمتأمل لما خلفه الصوفية من آثار يجد اهتمامهم بالأخلاق واضحا وبارزا ، وفهمهم العميق لها ، فلقد اهتموا بمعرفة النفس وتطهيرها من أدران الغفلة والرياء ، وألحوا على إحياء العزيمة والقلب ، والتنفير من الإثم الظاهر والإفك الباطن[٢] . وما رسموه من آداب للمريدين ، وما حثوا عليه من فضائل فى السلوك ، يفيض بمعانى أخلاقية سامية .

ولقد ربط الصوفية بين المقامات التى يترقى إليها الصوفى وتتحقق بالمزيد من الصفات المكتسبة بالرياضة والعبادة ، وبين الأخلاق ، فلقد قيل : « من أوتى الخلق فقد أوتى أعظم المقامات »[٣] .

وطريق الصوفية يقوم على مجاهدة النفس حتى تتحلى بالأخلاق ، ويميز السهروردى بين طريق مجاهدة الصوفية للنفس والذى يرمى إلى الأخلاق الكريمة ، وبين طرق غيرهم ، فيقول : « فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق ، وكم من نفس تجيب إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق ، ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض ، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها »[٤] .

والواقع أن علاقة التصوف بالأخلاق ، تنبع من طبيعتهما ، إذ كلاهما يهتم بالسلوك العملى ، ويرمى إلى السلوك الفاضل ، وتطهير الباطن ، وأن يأتى السلوك موافقا لصفاء الباطن ونقائه ، من هنا كانت هناك وشائج قربى بينهما .

---

(١) ماسينون ومصطفى عبد الرازق : الإسلام والتصوف ص٣٨ وأيضا د مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ص١٢١ .

(٢) د زكى مبارك : التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق ص٤١ .

(٣) السهروردى : عوارف المعارف مطبوع مع المجلد الخامس من الأحياء ص١٣٢

(٤) السهروردى : عوارف المعارف مطبوع مع المجلد الخامس من الأحياء ص١٣٢

الجوانب الأخلاقية فى التصوف :

نعرض فيمـا يلى لتلك الجوانب على سبيل الجملة لا على سبيل التفصيل :

١ - الفهم الأخلاقى لمعنى العبادات :

لقد فهم الصوفية العبادات التى شرعها الإسلام على أنها ليست مجرد أعمال ظاهرة بل إن لها معانى باطنية ذات أساس أخلاقى ، وسوف نشير بإيجاز إلى أمثلة توضح ذلك الفهم الأخلاقى للعبادات .

إن عبادة الله فى نظرهم لا تقوم على أساس الخوف من النار والطمع فى الجنة ، إن مثل ذلك كمثل الأجير السوء ، وصاحب هذا الفهم لا يزداد من الله إلا بعدا ، يقول إبراهيم الخواص وهو من الصوفية : « من اتباع الهوى أن يعبد العبد ربه لطلب ثواب أو خوفا من عقاب فلا يزداد صاحب هذا القصد على مرور الزمان إلا إدبارا »(١) .

فالعبادة بذلك لا تقوم على العوض ، يقول ابن عطاء : « من طلب عوضا من الله على عبادته استحق الطرد والمقت »(٢) .

ولا يخفى ما فى هذه الأقوال من معنى أخلاقى ، يقوم على أداء الواجب لذاته دون نظر لمنفعة واجتناب ضرر .

ولقد أفاض الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » فى ذكر المعانى الباطنية الأخلاقية للعبادات ، نذكر منها بإيجاز على سبيل المثال :

يذكر الغزالى أن هناك معانى باطنية تشترط فى صحة الصلاة وكمالها ، ويسميها حياة الصلاة ، أى أنه يقصد أن بها تتحقق الصلاة ، ولا تتحقق بدونها ، وهذه المعانى هى الخشوع وحضور القلب والتفهم ، والتعظيم ، والهيبة ، والرجاء ، والحياء ، فهذه المعانى هى التى تتم بها الصلاة الحقة ، ويتحقق المراد بها ، وهو النهى عن الفحشاء والمنكر ، لأن تحقق هذه الأمور كفيل بالنهى عن الفحشاء والمنكر »(٣) .

---

(١) الشعرانى : الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية حـ١ ص٦١ .

(٢) الشعرانى : الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية حـ١ ص٦٠ .

(٣) الغزالى : إحياء علوم الدين حـ١ ص١٥٩ ١٧٢

والزكاة : إنما هى تطهر النفس من رذيلة البخل ، وتكسبها فضيلة الجود والسخاء وشكر المنعم ، ولقد ذكر الغزالى من شروط أدائها ، أن تؤدى فى السر بعيدا عن الرياء وحب السمعة ، لأن فى إظهارها هتك لستر المروءة ، وذلا وامتهانا للمؤمن الذى يأخذها ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه .

وإخفائها أسلم لقلوب الناس وألسنتهم ، لأنه ربما يؤدى إظهارها إلى وقوعهم فى الكبائر والحسد والغيبة والنميمة .

أيضا يجب على من يخرج الزكاة أن يستصغر ما يقدمه لأنه إن استعظم عطيته أعجب بها والعجب من المهلكات[1] .

فالزكاة بذلك ليست مجرد مال يخرجه الفرد ، بل هى تعلمنا صفات أخلاقية ، وتبعدنا عن الرذائل .

والصوم ثلاث درجات : صوم العموم وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وصوم الخصوص وهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، وصوم خصوص الخصوص ، وهو صوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية[2] .

والحج : يعنى التجرد لله سبحانه فى جميع الحركات والسكنات ، وهذا لا يتم إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات ، والاقتصار على الضرورات فيها .

وإذا كان الحج يحتوى على أعمال لا يستطيع العقل أن يدرك كنهها ، كرمى الجمرات والتردد بين الصفا والمروة ، فإن هذا يعنى أن تكون نجاة الخلق على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع ، وفى هذا تزكية للنفس وصرفها عن مقتضى الطبع[3] .

خلاصة القول : أن هذه الإشارات الموجزة التى أوردناها توقفنا على فهم الصوفية لمعنى العبادات ، وهذا الفهم يقوم على أساس أخلاقى ، وحث

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين حـ١ ص٢١٣ ٢٢٧ .

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين حـ١ ص٢٣٤

(٣) الغزالى : إحياء علوم الدين حـ١ ص٢٦٥ وما بعدها .

النفس على الفضيلة وتخلصها من الرذيلة ، ولقد عول الصوفية كثيرا على البعد الباطنى وإثرائه .

٢ - العناية بإصلاح الباطن :

لقد أولى الصوفية عناية كبيرة بالحياة الباطنية للإنسان ، وإثراء الجانب الروحى فيه ، وتحدثوا عن خلجات النفس وخطرات القلب ، ودقائق المشاعر ورقائق الأحاسيس ، واهتموا بعلاج النفس من أمراضها ، فكما يعتنى الإنسان بسلامة الجسد فإن العناية بسلامة النفس أولى .

وعناية التصوف بالجانب الداخلى للإنسان إنما تنبع من طبيعة التصوف ذاته « فالتصوف أولا وأخيرا ليس إلا رحلة نفسية ، فيها يتم للصوفى اكتشاف أبعاد نفسه ، ومدى صلتها بالله وبخلقه ، وما يؤديه الصوفى من أعمال ، وما يقوم به من واجبات ومجاهدات ليس إلا زادا ، وإعدادا ، ووسيلة لإتمام هذه الرحلة بنجاح[١] .

ومن هنا كان اهتمام الصوفية بمعالجة النفس ، وهذا العلاج يقوم على تخلية النفس من الرذائل وتحليتها بالفضائل ، بل إن هذا الإصلاح الأخلاقى مقدمة ضرورية للمريد الذى يسلك طريق الوصول إلى الله ، فلا يقوم على العبادة والذكر إلا بعد تخلية النفس من الرذائل ، يقول « الشعرانى » فى ذلك « ومن شأنه (أى المريد) مكابدة خواطره ومعالجة أخلاقه ونفى الغفلة عن قلبه بمداومة الذكر ، أما لكثرة تلاوة القرآن والصلاة ، فلا يعول المريد الصادق عليه لأن القرآن إنما هو ورد الكمال » وكذلك الصلاة ، وأما المريد فإنما عمله الدائم فى تنظيف ظاهره وباطنه عن الصفات التى تمنعه من دخول حضرة الله عز وجل كالغضب وعز النفس والكبر والعجب والحسد ونحو ذلك ، فإذا تطهر المريد من هذه الصفات فهنـاك يصلح له تلاوة القرآن ومجالسة الحق جل وعلا ، والوقوف بين يديه فى الصلاة وغيرها ، هذا ما درج عليه السلف الصالح»[٢] .

---

(١) د. كمال جعفر : مدخل إلى الأخلاق ص ١٤١ .

(٢) الشعرانى: الأنوار لقدسية فى معرفه قواعد الصوفية حـ١ ص٦٩ وانظر أيضا : تهذيب الأخلاق لابن عربى حيث رأى أن ملاك الأخلاق هو تذليل القوة الشهوانية والفضيلة وخضوعها للقوة العاملة ص٤٤ - ٥٣ .

وأيضا يذكر (السهروردى) فى آداب المريدين ، أن على المريد أن يجتهد فى تبديل أخلاق النفس كالكبر والبخل والحرص والأمل والحدة والحسد والرياء والمراء ، والمنازعة والغيبة ، وسوء الظن والوقاحة ، وغيرها من الأخلاق الذميمة بضدها من الأخلاق الحميدة[1] .

ويبين « ابن عطاء الله السكندرى » كيفية تبديل الأخلاق المذمومة إلى أخلاق حميدة ، فيذكر أنه إذا أردت أن تحاسب النفس على الأفعال المذمومة وتعويدها الأفعال الجميلة « فاجعل أحوالك على ضد ما كنت عليه ، فاجعل بعد السهر فى معصية الله ، السهر فى طاعته وبدل الإقبال على أهل الدنيا . الإعراض عنهم ، والإقبال على الله ، وبعد النشاط فى خدمتهم ، النشاط فى خدمة الله ، وبعد الإصغاء لكلامهم والاستماع إليه ، الإصغاء لكلام الله والاهتمام به ، وبعد قطع الوقت فى الغيبة ، وذكر أحوال الناس ، الإكثار من التوبة والاستغفار ، وبعد الأكل بالشره والشهوة ، الأكل القليل الذى يعينك على العبادة ، ويساعدك فى القيام بواجبات الحياة ، فتأكل متعبدا لا متشهيا شرها ، وتلبس للتحدث بنعمة الله بعد أن كنت تلبس الثياب للتفاخر والشهرة ، . . وتطلب العلم لتنفع به نفسك ، وتعلم غيرك . ابتغاء مرضاة الله ، بدل أن كنت تطلبه للدنيا والشهرة والغلبة ، وتخلص نيتك لله تعالى فى حجك وإنفاقك ، وقولك وعملك ، حتى تنقلب العادة عبادة ، وتصبح ربانيا فى كل عمل وعلى كل حال »[2] .

وعلى هذا فالصوفى يقوم باستبطان نفسه وتأملها ، ليعرف نفسه وعيوبها ، ويقوم تلك العيوب ، ويقتلع تلك الآفات ، وعملية محاسبة النفس ومراقبتها ، وتأملها يعنى الارتداد إلى ذلك البعد الباطنى للإنسان ، وذلك يتطلب الخلوة والعزلة عن الناس ، لذا آثر الصوفية الخلوة والعزلة ودعوا إليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، يقول ابن عطاء فى فضل العزلة والدعوة إليها : « ولو انقطعت عن الخلق ، لفتح لك باب الأنس به تبارك وتعالى ، لأن الأولياء قهروا أنفسهم بالخلوة والعزلة ، وفطموها عن شهوات الحياة الدنيا ،

---

(١) أبى النجيب ضياء الدين السهروردى : آداب المريدين ص٦١ .

(٢) ابن عطاء الله السكندرى : بهجة النفوس ص٩٠١ .

وأدبوها بالعفة والقناعة والاستغناء بالحلال الطيب ، عما فى أيدى الناس ، وذبحوا شهوات الطمع والشهرة ، بسكين الخوف ، فسمعوا من الله ، وأنسوا به وتلذذوا بمناجاته وفازوا بمتعة القرب منه عز وجل ، قال تعالى : ﴿ . . وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾[1] .

فإن أردت أن تستخرج مرآة قلبك من الأكداد ، فارفض ما رفضوا وهو الإنس بالخلق ، والإكثار من مخالطتهم ، ومشاركتهم فى لغو القول وضلال العمل ، ولا تقعد على أبواب الطرق والشوارع والحارات لانتقاد عباد الله[2] .

ولكن هل يعنى هذا انعدام البعد الاجتماعى عند المتصوفة ؟ يمكن للإجابة على هذا أن نذكر ما ذكره « ماسينون » فى مقدمة كتابه « بحث فى نشأة المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى » فقال : إن منهج الاستبطان الذى يقوم عليه التصوف وبه أحيا الإسلام وعلومه على حد تعبير الغزالى ، يحيل الصوفية إلى أطباء نفسانيين يعملون على شفاء بلايا الآخرين ، وذلك لأن - الصوفية كما يقول المحاسبى فى كتاب « المحبة » قد رنوا بأبصارهم بفضل ضياء الحكمة الإلَهيـة ، إلى المناطق التى تنمو فيها الأدوية ، وقد علمهم الله كيف يفعل الدواء ، فبدأوا بشفاء قلوبهم ، وأمرهم حينذاك بأن يواسوا قلوب المحزونين والذين يتألمون . . .

وقوة التصوف الإسلامى الدائمة ليست فى الانعزال المترفع المحزون الذى فيه يصيح المجذوب . بل هى فى الشوق الخـارق إلى التضحية فى سبيل إخوانه ، فى الوجد العالى للاستشهاد الذى تغنى به الحلاج حين قال : فالصوفى يخدم نفسه ، كما يخدم الآخرين ، يكتشف عيوب نفسه ليعالجها فى نفسه وفى الغير ، ويرتفع بمستوى الحيـاة الروحية ، ليجعل منها نموذجـا يحتذيه ، ليس فقط أصحابه فى الطريقة ، بل وسائر الأمة ، ويستهلك نفسه فى الحب الإلَهى ليستطيع الشفاعة للآخرين عند مولى الشفاعة[3] .

وفى الواقع أن حديث الصوفية عن آداب الأخوة والألفة وحقوق

---

(١) العلق : آية ١٩ . (٢) ابن عطاء الله السكندرى : بهجة النفوس ص١١٤- ١١٥

(٣) نقلاعن كتاب « تاريخ التصوف الإسلامى » للدكتور عبد الرحمن بدوى ص٢٣، ٢٤ .

الصحبة ، يؤكد ذلك البعد الاجتماعى ، وسوف نرى مزيدا من ذلك حين نعرض نوعية الفضائل التى حث عليه الصوفية .

فالعزلة بذلك ليست غاية فى ذاتها ، بل هى وسيلة تمكن الصوفى من مراجعة نفسه وتصحيح نوازعها وتعديل زغباتها وهى فترة تسليح الإنسان بما يقوى به على مصارعة الشر ، ومعايشة الرذيلة دون أن تؤثر فيه[1] .

وابن عطاء الله الذى ذكرنا قوله فى فضل العزلة ، يرى إباحة الخروج من تلك العزلة إذا كان فى الخروج أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، أو سعى على المعيشة ، أو قضاء حوائج المسلمين وجلب النفع لهم ، وذلك لأنه نوع من العبادة يثاب عليه المرء[2] .

وخلاصة القول إن الصوفية يرمون إلى عمارة الباطن ، ونقاء السريرة وخلوصها ، وصدق النية ، وتهذيب النفس وتطهيرها من الرذائل ، ليتحقق لها صفاءها ونقاءها ، وذلك كله لا يتم إلا عن طريق تحلى النفس بالأخلاق الحسنة ، وتخليتها عن الرذائل المذمومة ، ومسارعتها إلى الخيرات ، واجتناب الشهوات .

٣ - أدب الجوارح :

لم يقتصر اهتمام الصوفية على إصلاح الباطن وإثرائه بالمعانى الروحية فحسب ، بل اهتموا أيضا بأدب الجوارح ، وهى الأداة التى يتم بها السلوك ، ولكل جارحة أدب تختص به ، قال الله تعالى : ﴿ .. إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾[3] .

وأدب الجوارح : هو أن لا تتحرك جارحة منها فى غير رضاء الله ، وأدب اللسان أن يكون رطبا بذكر الله عز وجل ، وبذكر الإخوان بالخير والدعاء لهم ، وبذل النصيحة والوعظ ، ولا يكلمهم بما يكرهون ، ولا يغتاب ولا ينم ، ولا يخوض فيما لا يعنيه ، وأن يتكلم فى كل مكان بما يوافق

---

(١) د . كمال جعفر : المدخل إلى الأخلاق ص١٥٩ .

(٢) ابن عطاء الله : بهجة النفوس ص١١٣ .

(٣) الإسراء : آية ٣٦ .

الحال ، وأن يكون ترجمانا للقلب ، وأن يكون مفتاحا للخير ، وأن يلزم الصمت حين يجب الصمت .

وأدب السمع : ألا يسمع إلى الفحش والغيبة والنميمة وكل منكر بل يستمع إلى الذكر والوعظ والحكمة وما يعود عليه بالفائدة دينا ودنيا .

وأدب البصر : الغض عن المحارم وعن عيوب الناس والإخوان والمنكرات والمحرمات ، ويكون نظره بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله تعالى وعظمته .

وأدب اليدين : البسط بالبر والإحسان ، وخدمة الإخوان ، وألا يستعين بها على معصية .

وأدب الرجلين : السعى بهما فى صلاح نفسه وإخوانه ، وألا يمشى فى الأرض مرحا ، ولا يختال ولا يتبختر ولا يزهو ، فإنها مما تبغضه إلى الله تعالى ، ولا يستعين بهما على المعاصى[1] .

وعلى هذا فيجب استخدام كل جارحة فيما شرع الله فى استخدامها ، وألا نستعملها فى نقل الشرور والمعاصى ، فنخرج بذلك عن الحدود التى رسمها الله لاستعمالها ، ووظيفتها التى خلقت من أجلها ، وحسن استخدام تلك الجوارح يتبع سلامة الباطن ونقائه ، وبذا يسرى الخشوع فى القلب والجوارح معا .

نماذج من أخلاق الصوفية :

نعرض فيما يلى لنماذج من الأخلاق التى تحلى بها الصوفية ، وحثوا عليها ، والتمسك بها ، وذلك على سبيل الإيجاز :

١ - **التواضع** : من أفضل ما تحلى به الصوفية من أخلاق التواضع ، وهو أن تعرف مقدار نفسك ومقدار الآخرين ، وإذا تأملنا كلمات الصوفية فى التواضع نجد أنها تعنى عدم الكبر والتعالى على الآخرين ، وعدم العجب والاعتداد بالنفس الذى يخرجها عن حد الاعتدال فى معاملة الآخرين ، يقول

---

(١) السهروردى آداب المريدين ص٧٢ ٧٦ وأيضا القشيرى : ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى ص٣٤

الجنيد فى إجابته عن معنى التواضع ، أنه خفض الجناح ولين الجانب ، ويقول الفضيل عنه تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله وتسمع منه .

وفضيلة التواضع هى وسط بين الكبر والضعة ، والكبر هو رفع الإنسان نفسه فوق قدره ، والضعة وضع الإنسان نفسه مكانا يزرى به ويفضى إلى تضييع حقه ، وقد نجد فى بعض إشارات مشايخ الصوفية من أقام التواضع مقام الضعة ، وفى هذا خروج عن حد الاعتدال ، لكن قصدهم فى ذلك المبالغة فى قمع نفوس المريدين خوفا عليهم من العجب والكبر ، ولقد نقل عن بعض كبار الصوفية كلمات مؤذنة بالإعجاب لكن ذلك فيما يرى السهروردى يكون - فى حال السكر وكلام السكارى يحمل أى يؤول وليس المراد به حقيقة .

ويرى السهروردى أن الاعتدال فى التواضع أمر صعب ، لذا يجب أن يرضى الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه ، لأن الإنسان لا يأمن جموح نفسه وأن يوقفها على حد يستحقه من غير زيادة ولا نقصان ، لأن الجموح من جبلة النفس لذا احتاجت للتداوى بالتواضع[1].

٢ - **تحمل أذى الناس** : من أخلاق المريد الصادق تحمل أذى الناس وكظم غيظه ما استطاع[2].

ويصبر على أذاهم ، وهذا يشير إلى ضبط الانفعالات ، وعدم التهور فى الغضب .

٣ - **الإيثار** : وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه وهو أعلى من السخاء ، لأن البذل مع الحاجة أشد ، ومن شأن المريد أن يكون دائم الإيثار لأصحابه فى سائر الشهوات على نفسه ، وكلما كان خط المريد من الإيثار كبيرا كلما ازدادت مكانته رفعه على أقرانه[3].

٤ **العفو ومقابلة الحسنة بالسيئة** : يجب على المريد أن يعفو عن من

---

(١) السهروردى : عوارف المعارف ص١٣٤ - ١٣٦ .

(٢) الشعرانى : الأنوار القدسية حـ١ ص١٤٢

(٣) الشعرانى : الأنوار القدسية حـ١ ص٩٦

يسىء إليه من قول أو فعل أو سوء ظن ، والعفو هو الذى يحقق معنى الإحسان ، قال سفيان : الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنقد السوق ، وقال الحسن : الإحسان أن تعم ولا تخص كالشمس والريح والغيث[1] ، فمن أخلاق الصوفى العفو الذى يشمل كل من أساء إليه ، والصفح عن ما يرتكبه الغير فى حقه من أخطاء .

٥ - من أخلاق الصوفية ، **البشر وطلاقة الوجه** : فالصوفى بكاؤه فى خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس ، فلا يلق الناس بالعبوس ، لأن ذلك ينفر الناس منه ، كما أن البشر على الوجه أثر من آثار أنوار القلب ، وعلامة على الباطن الذى يعمر بأنوار قدسية[2].

٦ - من أخلاق الصوفية **السهولة ولين الجانب والنزول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم** ، ويشرح السهروردى هذا الخلق ، فيذكر آثار الصوفية الدالة على حسن لين الجانب عند الصوفية ونزولهم مع الناس على حسب طباعهم ، وذلك لأنهم يرون أن رحمة الله واسعة ، لكن مشاركتهم للناس فى طباعهم ومداعبتهم ومزاحهم ، لا تؤثر فى حال الصوفى ، فإذا خلى لنفسه واكتسى ملابس الأعمال والأحوال ، لكن هذا لا يتوافر إلا للصوفى الحق ، الذى يقهر النفس ويعلم طباعها وأخلاقها ، لكن المبتدىء لا يجوز له أن يكثر من مشاركة الناس فى طباعهم ومزاحهم لقلة علمه بالنفس وتعدية حد الاعتدال . لكن يجب أن نشير إلى أن المزاح المقصود هو الذى يبعث السرور والترويح عن النفس فى حدود الأدب والوقار وفى حد الاعتدال[3].

٧ - **ترك التكلف** وذلك لأن التكلف تضيع وتعمل وتمايل على النفس من أجل الناس ،وذلك يباين حال الصوفية ، لذا قالوا التصوف ترك التكلف ، والتكلف له مظاهر عديدة ، منها : التكلف فى الملبس أو المأكل ، أو الكلام الذى يؤدى بصاحبه إلى التملق ويؤدى به دون أن يدرى إلى النفاق[4].

---

(١) السهروردى : عوارف المعارف ص ١٤٠ .

(٢) السهروردى : عوارف المعارف ص٤١ .

(٣) السهروردى : عوارف المعارف ص١٤١ - ١٤٣ .

(٤) السهروردى : عوارف المعارف ص١٤٣ .

٨ - **الإنفاق** : وذلك لأن الصوفى صادق فى توكله على الله وثقته بربه ، وأنه هو الذى يكفل له الرزق ، وأن الدنيا دار غربة ليس له فيها ادخار ولا استكثار[١] .

٩ - **القناعة باليسير من الدنيا** ، وذلك شأن الصوفى الذى يعلم بطبيعة النفس ، ويتحكم فى أهوائها وشهواتها ، ويقتصر على إشباع حاجاته الضرورية ، ويقول السهروردى « فالصوفى قوام على نفسه بالقسط ، عالم بطبائع النفس وجدوى القناعة والتواصل إلى استخراج ذلك من النفس لعلمه بدائها ودوائها »[٢] .

١٠ - **ترك المراء والمجادلة والغضب إلا بحق** ، يوحد الصوفية بين المراء وبين الغل فى النفوس الذى هو مراء الباطن ، فإذا انتزع الغل من الباطن ذهب المراء من الظاهر أيضا ، فالدافع للمراء والمجادلة هو وجود الغل فى النفس ، والدافع إلى المراء هو حظوظ الدنيا ، والصوفى يزهد فى الدنيا وحظوظها ، وهذا يمحى الغل من باطنه ، ولا تبقى عنده منافسة دنيوية فى حظوظ عاجلة من جاه ومال .

وأيضا أن الناس فريقان ، فريق يطلب ما عند الله ويدعوا إليه وهذا ما يوافق الصوفى ، فلا منافسة معه بل موافقة ، وفريق افتتن بالدنيا ومحبة الجاه والمال والرياسة ، وهذا أيضا لا منافسة للصوفى معه ، لأنه يزهد فيما يرغب فيه هذا الفريق ، بل إن من شأن الصوفى أن ينظر إلى مثل هذا نظر رحمة وشفقة حيث يراه محجوبا مفتتنا فلا ينطوى له على غل ولا يماريه فى لظاهر على شىء ، لعلمه بظهور نفسه الأمارة بالسوء فى المراء والمجادلة[٣] .

١١ - **التودد والتآلف ، والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة** ، ويعول الصوفية كثيرا على المحبة التى يجب أن تكون على أساس العلاقات بين الناس ، فالمحبة تغنى عن العدالة . إذ تنعدم الشحناء والبغضاء بين الناس ، وطاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة ، لأن طاعة المحبة من الداخل وطاعة

---

(١) السهروردى : عوارف المعارف ص ١٤٤ .

(٢) السهروردى : عوارف المعارف ص١٤٥ .

(٣) السهروردى : عوارف المعارف ص١٤٥ - ١٤٧ .

الرهبة من الخارج ، لذا كانت المحبة أساس صحبة الصوفية بعضهم مع البعض ، وذلك لأنهم تحابوا فى الله وتواصوا بمحاسن الإخلاص ، ووقع القبول بينهم لوجود المحبة[١] .

١٢ - **شكر المحسن على الإحسان والدعاء له** ، لكن هذا لا يقدح فى توكل الصوفى على الله ورؤيته أن مصدر النعم هو الله ، وفنائه عن الخلق ، وذلك لأن « الصوفى فى الابتداء يغنى عن الخلق ، ويرى الأشياء من الله حيث طالع ناحيته التوحيد وخرق الحجاب الذى منع الخلق عن صرف التوحيد ، فلا يثبت للخلق منعا ولا عطاء ، ويحجبه الحق عن الخلق ، فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد ، يشكر الخلق بعد شكر الحق ، ويثبت لهم وجودا فى المنع والعطاء ، بعد أن يرى المسبب أولا ، ولذلك لسعة علمه وقوة معرفته يثبت الوسائط ، فلا يحجبه الخلق عن الحق كعامة المسلمين ، ولا يحجبه الحق عن الخلق كأرباب الإرادة والمبتدئين، فيكون شكره للحق لأنه المنعم والمعطى والمسبب ، ويشكر الخلق لأنهم واسطة وسبب»[٢] .

١٣ - **بذل الجاه للإخوان وللمسلمين كافة** ، فإذا كان الرجل وافر العلم بصيرا بعيوب النفس وآفاتها وشهواتها فليتوصل إلى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة فى إصلاح ذات البين ، وفى هذا المعنى يحتاج إلى مزيد علم ، لأنها أمور تتعلق بالخلق ومعاشرتهم ، ولا يصلح ذلك إلا لصوفى تام الحال عالم ربانى[٣] .

وبعد : فهذه نماذج لما تحلى به الصوفية من أخلاق ، وهى فى مجملها أخلاق تمثل ما ينبغى أن يكون عليه السلوك الإنسانى ، فهى تعنى بالبناء الروحى للفرد ، وتزكية هذا الجانب ، وتلح على صفاء النفس وطهارتها وخلوصها من الشرور والآثام ، وهى فى سبيل تحقيق ذلك تسلك طريق المجاهدة ، والسيطرة على أهواء النفس .

ولكن هل نجح الصوفية فى تحقيق هذه الأخلاق نجاحا كاملا ؟ يمكن

---

(١) السهروردى : عوارف المعارف ص١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) السهروردى : عوارف المعارف ص ١٤٨ .

(٣) السهروردى : عوارف المعارف ص١٤٩ .

القول بأن الصوفية لم يصيبوا النجاح الكامل فى تحقيق هذه الأخلاق ، وذلك يرجع إلى أمرين أساسيين ، **الأول** : يرجع إلى صعوبة الوسط الأخلاقى ذاته ، إذ أن الاعتدال أمر صعب المنال ، لا يدركه إلا الصفوة التى يتحقق لها العلم التام بحقيقة الوسط وضبط النفس ، وعلى سبيل المثال : سبقت الإشارة إلى قول « السهروردى » بصعوبة الاعتدال فى التواضع .

والثانى : يرجع إلى مغالاة بعض الصوفية فى تطبيق هذه الأخلاق ، إلى الحد الذى يجعلها أمرا عسير التحقيق ، فعلى سبيل المثال ، إذا كان عدم التكالب على الدنيا فضيلة ، إلا أن بعض الصوفية قد غالى فى هذا إلى حد العزوف عنها كلية ، ولقد عقد الغزالى فصلا كبيرا فى « إحياء علوم الدين » فى ذم الدنيا وتفضيل الفقر على الغنى ، وأورد الكثير من الأخبار فى ذلك - وهذا مما يخرج عن حد الاعتدال ، وأيضا إذا كان علاج النفس ومنعها من الشرور والآثام واجبا ، إلا أن الطريقة التى سلكها بعض الصوفية فى ذلك بلغت درجة عالية من القسوة يخرجها عن حد الاعتدال ، ويلحق بها الضرر ، والحكايات فى ذلك كثيرة ، وكل ما نريد أن نذكره هو أن مغالاة بعض الصوفية وتعسفهم فى تطبيق تلك الأخلاق أخرجها عن حد الاعتدال ، وأصبح من الصعب تحقيقها إن لم يكن مستحيلا .

إلا أن هذا لا يجعلنا أن نغفل الجوانب الإيجابية لهذه الأخلاق التى تحلى بها الصوفية ، فلا شك أن اهتمامهم بتزكية النفس ، وخلوصها من الشرور والآثام، كالكبر والعجب وسوء الظن والحقد، والبغض، وغير ذلك من الشرور والآثام وتحليتها بفضائل العفو والصفح والكرم والإحسان والتواضع والإيثار، وغير ذلك من الفضائل، كل ذلك ضرورى لإعداد الفرد إعدادا صالحا ولإقامة المجتمع القوى المتماسك، فهى تزكى فى الإنسان جانبه الروحى ، وتؤهله للقيام بمسئوليته كاملة ، وذلك لأنها تجعله دائما فى محبة الله ومراقبته ، فهو معه مطلع على أعماله ، وهو مطيع لله تعالى ومراعيا لأوامره ومجتنبا لنواهيه ، مدركا حقيقة العبودية لله تعالى .

وأيضا هذه الأخلاق تعد الضمير الفردى إعداد صالحا ، فهى تعمل على مراقبة النفس ومحاسبتها على كل صغيرة وكبيرة ، ومن هنا يكون الفرد

صاحب ضمير يقظ ، ويكون رقيبا على أعماله ، دون نظر إلى سلطة خارجية تقهره ، وهذا يؤدى إلى أن الفرد يحسن عمله ويتقنه دون نظر إلى حساب خارجى بالنفع أو الضرر .

وهذه الأخلاق تزود الفرد بصفات الأخلاق الحميدة ، فهى تحثه على الصدق فى القول والعمل ، وتبعث فيه روح الشجاعة والإقدام ، فلا يخاف فى الحق لومة لائم ، ولقد كان للصوفية مواقف كثيرة جاهروا فيها بكلمة الحق أمام الحكام الجائرين .

وأيضا هذه الأخلاق أساس تكوين علاقات اجتماعية صحيحة ، فالصوفى هو الذى يمتلىء قلبه بحب الله وحب الناس ، وهو الذى يتسم بسمة العفو والصفح ، وتحمل أذى الناس ، وإيثار الغير وإسداء النصح والعظة للناس ، ولقد قام الصوفية بدور الوعظ للأمة فى كثير من الأحيان ، والصوفى هو الذى اقتلع من نفسه الحقد والبغض ومنافسة الآخرين ومعاداتهم ، وهو دائما لين الجانب ، يرفق بغيره ، ويكظم غيظه ، حليم مع من أساء إليه ، يتبع السيئة بالحسنة ، يخاف على مخالفيه ويدعو لهم ، ويقدم لهم الخير ما استطاع إليه سبيلا ، وهو لا يعيث فى المجتمع فسادا ، لأنه تمسك بالفضيلة وتخلى عن الرذيلة ، وهو بالجملة إنسان فاضل فى مجتمع تسوده الأخوة والمحبة .

* * *

الأخلاق عند الغزالى

اهتم حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى بالأخلاق سواء فى جانبها النظرى أو العملى ، اهتماما كبيرا ، واحتلت جزءا كبيرا فى مؤلفاته ، وسوف نحاول فيما يلى أن نبرز ذلك الجانب الأخلاقى عند الغزالى ، وسوف نوجز القول فى ذلك ، مقتصرين على المعالم الرئيسية لهذا الفكر الأخلاقى ، دون الدخول فى تفصيلات أو تفريعات .

معنى الأخلاق :

يفرق الغزالى بين « الخَلق » ،و « الخُلق » والمراد بالخَلق هو الصورة الظاهرة المركب منها الإنسان ، والخُلق هو الصورة الباطنة للإنسان ، ولكل واحد منهما صورة إما قبيحة أو جميلة .

والخُلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وإن كانت الأفعال الصادرة عنها قبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا .

ويشرح الغزالى المقصود بأن الأخلاق هيئة راسخة ، أى أنها ثابتة فى النفس ، بمعنى أن لا يأتى الفعل الخلقى استثناء أو عارضا ، بل يكون دائما وثابتا ، فإنه كما قال أرسطو إن خطافة واحدة لا تدل على الربيع - والمقصود بغير روية وفكر ، هو أن يكون الفعل الأخلاقى سهلا ميسورا لا يحتاج إلى إعمال الفكر ، فيقول الغزالى : « من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم »[1].

وما ذكره الغزالى من تعريف الأخلاق هو نفس ما ذكره مسكويه من قبل .

وإذا كانت الأخلاق هيئة للنفس وصورتها فما هى حقيقة النفس وقواها فى نظر الغزالى .

النفس :

الإنسان مكون من جسم مدرك بالبصر ونفس مدركة بالعقل والبصيرة ، والنفس الإنسانية هى حقيقة الإنسان ، وهى منزهة عن الجسم ، لأنها من الأمور الإلهية التى هى أجل وأرفع من الأجسام الخسيسة الأرضية[2].

ويعرف الغزالى النفس بأنها الجوهر الكامل الفردى الذى ليس من شأنه إلا التذكر والتحفظ والتفكر والتمييز والروية ، ويقبل جميع العلوم ولا يمل من قبول الصور المجردة المعراة عن المواد ، هذا الجوهر هو الذى سماه الحكماء بالنفس الناطقة ، وسماه القرآن بالنفس المطمئنة وبالروح ، وسماه الصوفية بالقلب ، ويرى الغزالى أن المعنى واحد وإن اختلفت التسمية ، فيذكر أن القلب والروح عندنا والنفس المطمئنة كلها أسامى النفس الناطقة .

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين - المجلد الثالث ص٥٣ .

(٢) الغزالى : ميزان العمل ص٢٧ .

ويستبعد الغزالى فى هذا التعريف القوة الشهوية والقوة الغضبية من تعريف النفس ، ويرى أن النفس هى جوهر للمعقولات مصدره عالم الملكوت والأمر[١] .

لكن الغزالى يذكر فى « ميزان العمل » ويشير فى « الإحياء » إلى قوى النفس الثلاث : القوة المفكرة ، والقوة الشهوية ، والقوة الغضبية ، ويميز بين النفس الإنسانية وغيرها من النفوس ، وهى النفس النباتية والنفس الحيوانية ، إذ أن النفس الإنسانية من حيث إنها انسانية ، تنقسم إلى قوة عالمة وقوة عاملة ، والقوة العالمة هى القوة النظرية وهى قوة عاقلة والقوة العاملة ، هى القوة التى ينزع الإنسان بها إلى الأفعال الإرادية التى منها الحسن والقبيح ، إذ هى مبدأ حركة بدن الإنسان إلى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكر والروية ، على ما تقتضية القوة العالمة النظرية .

ووفقا لهذا فإن على القوة العالمة أن تنقاد لتلك القوة العالمة ، فتخضع القوة الغضبية والقوة الشهوية للقوة المفكرة ، فإن سكنت وتحركت القوة العاملة بحسب تأديب القوة العالمة،وإشاراتها ، كانت الفضيلة والخلق الحسن ، وإن خالفتها وصارت مغلوبة على أمرها كانت الرذيلة ، والخلق الردىء .

وهذا المعنى كثيرا ما استخدمه الغزالى ، وهو متصل بالأخلاق اتصالا وثيقا ، ويظهر فيه واضحا تأثره بأفلاطون وأرسطو والفلاسفة الإسلاميين .

● **الفضيلة :**

يأخذ الغزالى بتعريف أرسطو للفضيلة بأنها وسط بين رذيلتين ، فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهورا ، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخورا ، وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها ، وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودا[٢] . وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال فى الأغراض الفاسدة خبثا ، ويسمى تفريطها بلها ، والوسط هو الذى يختص باسم الحكمة[٣] .

---

(١) الغزالى : الرسالة اللدنية ص١٠١ .

(٢) الغزالى: ميزان العمل ص٢٦ - ٣٣ والإحياء المجلد الثالث ص٥٣ ، ٥٤

(٣) الغزالى : الإحياء المجلد الثالث ص٥٤

والفضائل تتعدد بتعدد قوى النفس ، ولقد حصرها الغزالى فى أربع فضائل رئيسية ، ويندرج تحت كل فضيلة رئيسية فضائل أخرى فرعية . والفضائل الرئيسية هى : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل : والحكمة تعنى حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ فى جميع الأفعال الاختيارية ، والعدل يعنى حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها ، والشجاعة تعنى كون قوة الغضب منقادة للعقل فى إقدامها وإحجابها ، والعفة تعنى تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع[1] .

ويندرج تحت فضيلة الحكمة حسن التدبير وجودة الذهن ونقاية الرأى وصواب الظن ، وفضيلة الشجاعة يندرج تحتها الكرم والنجدة وكبر النفس والاحتمال والثبات والنبل والشهامة والوقار - أما فضيلة العفة فيندرج تحتها الحياء والخجل والمسامحة والصبر والسخاء والقناعة والهدوء والورع ، ولقد عرف الغزالى هذه الفضائل تعريفا دقيقا ، وبين مضاداتها من الرذائل ، وفرق بينها وبين الفضائل[2] .

ولم يفت الغزالى أن ينبه إلى صعوبة الوسط والوقوف على حقيقته فذكر أن « طلب الوسط بين هذه الأطراف شديد وهو أدق من الشعر وأحد من السيف كما وصف من حال الصراط فى الدار الآخرة »[3] .

ولقد توسع الغزالى فى ذكر لفضائل وبيان حقيقتها ، وسوف نورد نماذج من هذه الفضائل عند الحديث عن الأخلاق العملية ، وهذه الفضائل تشمل الجانب الفردى والاجتماعى فهى تعتنى بواجب الفرد نحو نفسه ونحو الآخرين ، وتشمل الفضائل السلبية ، فهى تعتنى بالفقر ،الزهد والتوكل والتواضع وغير ذلك ، لكنها لا تهمل كلية الفضائل الإيجابية كالجود والإيثار ، والألفة والأخوة وغير ذلك من الفضائل الإيجابية .

---

(١) الغزالى : الإحياء جـ٣ ص٥٤ .

(٢) الغزالى : ميزان العمل ص٨٣ - ٩١ .

(٣) الغزالى : ميزان العمل ص٧٨ .

● **إمكان تغيير الخلق :**

إذا كانت الأخلاق هيئة راسخة فى النفس ، فهل يعنى ذلك أن الأخلاق لا يمكن تبديلها ؟ يجيب الغزالى بأن الأخلاق تقبل التغيير ، ولو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت المواعظ والتأديبات ، وإذا كان من الممكن تغيير السلوك فى بعض الحيوانات كالفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ، فإنه من الأولى أن يمكن تغيير الخلق السيء فى الإنسان إلى الخلق الحسن .

والأخلاق تخضع للأفعال الإرادية الاختيارية ، وما كان بالاختيار ، فإنه يمكن تغييره وتبديله وللإنسان دخل فيه ، أما الأفعال الطبيعية التى تسير وفقا للطبع كالحركات الطبيعية وأفعال السماء والكواكب ، والأفعال الفسيولوجية التى تتم داخل بدن الإنسان ، فلا تدخل للإنسان فيها ، وهى أيضا أفعال لا تدخل فى مجال الأخلاق .

ويرى الغزالى أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوى النفس المفكرة والغضبية والشهوية ، وهذا الاعتدال يحصل على وجهين :

أحدهما : يحصل بجود إلهى بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق ، قد كفى سلطان الشهوة والغضب ، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع ، فيصير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب ، وذلك شأن الأنبياء عليهم السلام ، ولا يستبعد الغزالى الطبع كلية من الأخلاق ، فلا يبعد أن يكون فى الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب ، فرب صبى خلق صادق اللهجة سخيا ، وربما يخلق بخلافه ، فيحصل ذلك فيه بالاعتياد والمخالطة والتعلم .

والوجه الثانى : هو اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة ، أى بحمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب ، فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريق ذلك أن يتكلف تعاطى فعل الجود وهو بذل المال .

وهكذا يرى الغزالى أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، فالفضيلة بذلك تكون بالطبع والاعتياد والتعلم ، ومن توافرت فيه هذه الخصائص الثلاث كان فى غاية

الفضيلة ، ومن كان سيئا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو فى غاية البعد من الله عز وجل ، وبين الرتبتين اختلفت فيه هذه الجهات ، ولكل درجة فى القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته .

وعلى هذا يمكن القول بأن الغزالى يقر بدور للطبع ودور للاكتساب ، لكن ما فى الطبع يحتاج إلى المرانة والاعتياد والتعلم وهذا يعنى أن ما فى لطبع ليس داء عضالا لا يمكن اقتلاعه ، بل يمكن تعديله وتوجيهه بالاعتياد والتعلم والمخالطة .

إلا أن قبول الناس لتغيير الأخلاق ليس بدرجة واحدة بل هم فى ذلك مختلفون على أربع مراتب ، يحددها الغزالى فى قوله :

الأولى : هو الإنسان الغفل الذى لا يعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح ، فيبقى خاليـا عن الاعتقاد وخاليا أيضا عن تشمير شهواته « أى تقويتها » باتباع اللذات ، فهذا أقبل الأقسام للعلاج فلا يحتاج إلا إلى تعليم مرشد وإلى باعث فى نفسه يحمله على الاتباع فيحسن خلقه فى أقرب وقت .

والثانية : أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح ، بل زين له شر عمله يتعاطاه انقيادا لشهواته وإعراضا عن صواب رأيه ، فأمره أصعب من الأول إذ تضاعفت علته ، فعليه وظيفتان : إحداهما قلع مارسخ فيه من كثرة العود للفساد ، والأخرى صرف النفس إلى ضده .

والثالثة : أن يعتقد الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل ثم تربى عليها ، فهذا يكاد يمتنع معالجته ولن يرجى صلاحه إلا على الندور إذ تضاعفت عليه أسباب الضلال .

والرابعة : أن يكون مع وقوع نشوئه على الاعتقاد الفاسد وتربيته على العمل به يرى فضله فى كثرة الشر واستهلاك النفوس ، ويتباهى به ، ويظن أن ذلك يرفع من قدره - وهذا أصعب المراتب - وصاحب المرتبة الأولى يقال له جاهل والثانية جاهل وضال والثالثة جاهل وضال وفاسق والرابعة جاهل وضال وفاسق وشرير[1] .

---

(١) الغزالى : الإحياء جـ٣ ص٥٥ - ٦٠ وميزان العمل ص٦٣ - ٦٥

وإذا كان من الممكن تغيير الأخلاق وتهذيبها : فما هو الطريق إلى تهذيب الأخلاق ؟

الطريق إلى تهذيب الأخلاق :

يعتمد هذا الطريق على علاج النفس بمحو الرذائل عنها ، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها ، وذلك يعنى اقتلاع الرذيلة ، وإبدالها بالفضيلة .

ويتم ذلك عن طريق تعويد النفس على ضد الرذيلة ، فعلاج الجهل بالتعلم والبخل بالتسخى تكلفا ، والكبر بالتواضع تكلفا ، والشره بالكف عن المشتهى تكلفا .

وليس هـذا العلاج أمر سهلا فى ابتدائه ، بل يحتاج إلى الصبر والمجاهدة ، فكما يصبر المريض على مر الدواء ، فلا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلوب ، بل ذلك أولى ، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت أما مرض القلوب فإنه يدوم بعد الموت .

وعلى المريض أن يتكلف ذلك الخلق الحسن الجديد ويصبر عليه ، ثم يداوم على تكراره ، حتى يصبح عادة سهلة ميسورة وراسخة فى النفس .

والغزالى ينبه إلى أن العلاج ليس واحدا وثابتا لكل الأمراض والمرضى ، بل هو متغير وفقا لحالة المرض وحالة المريض ، وإذا كان ذلك ما يراعيه الطبيب المعـالج للأبدان ، فكذلك يجب أن يراعيـه الشيخ الذى يعالج نفوس المريدين « فينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص مالم يعرف أخلاقهم ، فإذا عرف ما هو الغالب على المريد من الخلق السيىء وعرف مقداره ولاحظ حاله وسنه وما يحتمله من المعالجة عين له الطريق » . ويذكر الغزالى طرق العلاج المتنوعة التى يتبعها المشايخ مع المريدين[1] .

لكن الملاحظ فيما يرويه الغزالى عن هؤلاء هو القسوة الزائدة التى كانوا يتبعونها فى علاج أمراض النفس ، فعلى سبيل المثال أنه حكى عن بعضهم أن كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب ، فكان يستأجر من يشتمه

---

(١) الغزالى : ميزان العمل ص ٧٢ - ٧٥ .

على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر ، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل[1] . وغير ذلك من أمثلة العلاج البالغ القسوة والعنف ، مما يجعل طرق العلاج صعبة وغير متيسرة ، ويخرج بها عن حد مراعاة حالة المرض والمريض ومراعاة ما يصلح له ، والتى أشار إليها الغزالى نفسه .

ويبين الغزالى كيفية أن يعرف المرء عيوب نفسه ، ومعالجة تلك العيوب ، وذلك بأن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النـاس ، مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه فى نفسه ، وأن يطلب صديقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ، وأن يعرف عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، وأن يخالط الناس فما يراه مذموما منهم اتهم نفسه به[2].

وهو هنا يطالب المرء بمراقبة نفسه وأحوالها لمعرفة عيوبها وآفاتها ، وينبهه إلى طرق أخرى لمعرفة عيوبه ، كالأصدقاء أو ما يشاهده فى الواقع ويراه مذموما ، ولا يتباطأ فى الأخذ بعلاج تلك العيوب مستعينا فى ذلك بمن لهم خبرة فى علاج أمراض النفس .

والغزالى هنا يعول على إرادة المرء فى تغيير أخلاقه وقصده إلى تحسينها وهذا يجعلنا إلى أن نعرض لموقف الغزالى من النية ودورها فى العمل .

النية والعمل :

يرى الغزالى أن النية والإرادة والقصد عبارات مترادفة لمعنى واحد ، ويذكر أن الفعل الاختيارى لم يتم إلا بأركان ثلاثة هى : العلم والإرادة والقدرة .

والنية : هى انبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما فى الحال وإما فى المآل ، وهى تتوسط بين العلم والقدرة ، لأن لا يريد الإنسان ما لا يعلمه ، فلابد من العلم ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشىء موافق فهو يريده ، ثم إن الإرادة هى التى تحرك القدرة التى تحرك الأعضاء لتحقيق الفعل المراد .

---

(١) الغزالى : الإحياء حـ٣ ص٦٢ .

(٢) الغزالى : الإحياء حـ٣ ص٦٤ ، ٦٥ .

ويحلل الغزالى بواعث النية ويقسمها إلى أربعة أقسام :

الأول : أن يكون هناك باعث واحد ، كالإنسان الذى يهجم عليه السبع فكلما رآه قام من موضعه ، فالنية هنا الفرار من السبع ، وهى تسمى نية خالصة ، ويسمى العمل بموجبها إخلاصا ، لأنها تتعلق بباعث واحد لا مشاركة فيه .

الثانى : أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد ، كأن يتعاون رجلان على حمل شيء واحد بمقدار من القوة كان كافيا فى الحمل لو انفرد ، وكأن تعطى الفقير القريب ، فهنا باعثان اجتمعا على الفعل الواحد ، الفقر والقرابة ، وقد كان يمكن أن يتم الفعل بأحدهما ، فتعطيه لأنه فقير أو لأنه قريب .

الثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكل قوى مجموعهما على إنهاض القدرة : أى أن الفعل لا يتم إلا باجتماع الباعثين معا ، كالرجل الذى يتصدق بين يدى الناس لفرض الثواب ولفرض الثناء ، ولو كان بفرض الثواب وحده لم يتصدق ، ولو كان بفرض الثناء وحده لم يتصدق .

الرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه ، والثانى لا يستقل ، ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل ، مثال ذلك كمعاونة الرجل الضعيف للقوى على الحمل ، فلو انفرد الضعيف لم يستقل ، وإن انفرد القوى يستقل ، لكن مشاركة الضعيف تسهل عليه العمل وتخففه ، وأيضا كالإنسان الذى يكون له ورد فى الصلاة وعادة فى الصدقات فانفق أن حضر وقتها جماعة من الناس ، فصار الفعل أخف علة بسبب مشاهدتهم ، وعلم من نفسه أن لو كان منفردا خاليا لم يغتر عن عمله ، وعلم أن علمه لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه ، فهو شائبة تطرقت إلى النية[1] .

واهتمام الغزالى بهذا التحليل الدقيق لبواعث النية ، يشير إلى أهمية النية ودورها فى العمل ، وضرورة خلوص النية من كل شائبة ، حتى يأتى العمل خالصا وفقا للنية الخالصة الدافعة إليه .

---

(١) الغزالى : الإحياء حـ٤ ص٣٦٥ ، ٣٦٦ .

والنية فى نظره هى أساس صحة العمل ، والعمل بغير نية صادقة رياء وتكلف ، وهو سبب مقت لا سبب قرب ، فهى روح العمل وهى أساس العبادة الصحيحة ، ووفقا لتعدد بواعث النيات يكون الاختلاف فى درجات الطاعة لله تعالى ، فمن الناس من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار ، ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة فى الجنة ، وهذه النيات صحيحة لأنها ميل إلى الموعود فى الآخرة وإن كان من جنس المألوفات فى الدنيا ، لكنها أقل كثيرا من عبادة ذوى الألباب التى تقوم طاعتهم على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية ، ويذكرون الله ويتفكرون فيه حبا لجماله وجلاله ويتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم دون نظر إلى المطعوم أو المفلوح فى الجنة ، أو الخوف من النار[1] وعلى هذا فالنيات درجات متفاوتة .

ولقد أعلى الغزالى من شأن النية فى العمل إلى حد القول : « إن من حضرت له نية فى مباح ولم تحضر فى فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة فى حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات ، وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار فى الظلم ، وربما تحضره نية فى الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل »[2] .

وهذا يعنى أن الفعل لا يكون أخلاقيا إلا إذا كان منبعثا من النية موافقا لها .

وإذا كان للنية هذا الدور الهام فهل يمكن الاكتفاء بها دون العمل ؟ يجيب الغزالى بأن النية سر باطن ، والعمل ظاهر ، ولابد أن يوافق الظاهر الباطن ، لأنه علامة الباطن ، ويقول إن ميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذى يفزعها للذكر و لفكر ، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصى بالجوارح ، لأن بين الجوارح والقلب علاقة حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به

---

(١) الغزالى : الإحياء حـ٤ ص٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٢) الغزالى : الإحياء حـ٤ ص٣٧٥ .

الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون ، فالقلب هو الأصل وهو المقصود والأعضاء هى آلات موصلة إلى المقصود[1] .

وعلى هذا فلابد من العمل ، والنية والعمل ركنان يتم بهما الفعل ، فالعمل من غير نية ليس مفيدا أصلا ، والنية وحدها لا يتم بها الفعل كاملاً لأن الإتمام والتأكيد يكون بالعمل ، فالنية خير والفعل القائم على النية والعمل أرفع[2] .

ويبين الغزالى دور النية ومكانتها فى الأعمال وفقا لتنوع الأعمال وتقسيمها إلى ثلاثة أقسام : هى المعاصى والطاعات والمباحات .

فدور النية فى **القسم الأول** : وهو المعاصى أنها لا تتغير عن موضعها بالنية ، أى أن النية لا تؤثر فى كون الفعل ظلما وعدوانا ومعصية لأنه كيف يمكن أن يكون الشر خيرا ، فالذى يبنى مدرسة أو مسجدا بمال حرام ، لا تؤثر النية فى كون هذا الفعل معصية .

والقسم الثانى : وهو الطاعات ، فالنية أصل لصحة الطاعات ، وهى مرتبطة بأصل صحة الطاعات وفى تضاعف فضلها ، أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية ، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة ، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها .

والقسم الثالث : وهو المباحات ، يرى الغزالى أنه ما من شىء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات ، وعلى هذا فالشىء المباح لابد أن يتوافر فيه النية ، مهما كان صغيرا ، فالذى يتطيب لا يقصد بتطيبه إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران ، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه فى قلوبهم بذكر طيب الرائحة أو إلى غير ذلك من حظوظ الدنيا ، بل ينوى بتطيبه اتباع سنة الرسول وتعظيم

---

(١) الغزالى : الإحياء المجلد الرابع ص٣٦٧ .

(٢) الغزالى : الإحياء المجلد الرابع ص٣٦٨ .

المساجد عند دخولها ، وهكذا يريد الغزالى أن يخلص الفرد نيته فى عمله لله تعالى وابتغاء مرضاته سواء فيما فرضه الله عليه أو فيما أباحه له ، وأيضا فى كل صغير أو كبير من الأفعال[1] .

وإذا كان للإرادة هذه المكانة فى الأعمال وأنها شرط أساسى لصحتها ، فهل الإنسان حر فى إرادته مختار أم أنه مجبر فى أفعاله ولا إرادة له ؟

الجبر والاختيار :

هذه المشكلة كما أشرنا فيما سبق من أعقد المشكلات ، ولسنا نخوض فى ذكر تفاصيلها ، بل سنقتصر على عرض موقف الغزالى بإيجاز ، وهذه المشكلة لها صلة قوية بالأخلاق ، لأنه إذا كانت الإرادة حرة فى الإقبال على الفعل ، وكان الإنسان مختارا فى فعله ، عندئذ تصبح هناك قيمة للخير والشر ، ويكون الخير جديرا بالمثوبة والشر جديرا بالعقوبة ، وذلك لأنهما نتيجة اختيار الإنسان ، أما إذا كان الإنسان مضطرا ، فإن الخير والشر يفقدان قيمتهما ، ولا يكون الإنسان أهلا للثواب والعقاب .

وموقف الغزالى بإيجاز يتلخص فى قوله : « القول بالجبر محال باطل ، والقول بالاختراع اقتحام هائل ، وإنما الحق إثبات القدرتين على فعل واحد »[2] وهذه العبارة على قصرها تبين لنا موقف الغزالى ، فهو لا يقول بحرية الإرادة حرية مطلقة ، ولا بعجزها عجزا مطلقا ، فالله خالق القدرة والمقدور جميعا ، وخلق الاختيار والمختار جميعا ، وهو يتابع قول الأشعرية بالكسب ، فحركة العبد خلق لله تعالى ، ووصف للعبد وكسب له ، وعلى هذا فالفعل يتم بقدرتين قدرة الله التى هى الخلق والإيجاد للفعل ، وقدرة العبد التى تتعلق بالفعل من حيث اكتسابه وكونه طاعة أو معصية ، ويعارض الغزالى الجبر مفرقا بين الحركات الاضطرارية والحركات الاختيارية ، ويرد على اعتراضات المعتزلة على القول بالكسب واستحالة توارد قدرتين على فعل واحد ، ولسنا نخوض فى تفاصيل ، وإنما اكتفينا بمجرد الإشارة إلى موقف الغزالى[3] .

---

(١) الغزالى : الإحياء حـ٤ ص٣٦٨ - ٣٧٢ .

(٢) الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص١٢٤ - ١٢٥ .

(٣) يمكن الرجوع إلى كتاب: الاقتصاد فى الاعتقاد والجزء الأول من إحياء =

والغزالى فى موقفه هذا يريد أن يربط قدرة العبد بقدرة الله تعالى وأن يكون الإنسان دائما مع الله وفى موقف الطلب والرجاء ، وأن يخلص نفسه وحركاته وسكناته لله تعالى ، وهو موقف يتفق مع النزعة الصوفية .

حسن الأفعال وقبحها :

هل الأفعال تحسن أو تقبح لذاتها ، وأنه بوسع العقل أن يدرك الحسن والقبح فى الأفعال ، أم أنها لا تحسن لذاتها أو تقبح لذاتها ، بل هى تحسن لتحسين الشرع لها وتقبح لتقبيح الشرع لها ؟

أى هل الحسن والقبح أمر عقلى أم شرعى ؟

يجيب الغزالى عن ذلك بأن الحسن هو ما حسنه الشرع والقبح ما قبحه الشرع إلا أنه لا يخلى العقل تماما مع معرفة الحسن والقبح ، فيذكر فى معنى الحسن ، أن الفعل ينقسم فى حق الفاعل إلى ثلاثة أقسام : **أحدها** : أن يوافق غرضه ، **والثانى** : أن ينافى غرضه ، **والثالث** : أن لا يكون له فى فعله ولا فى تركه غرض ، وهذا الانقسام ثابت فى العقل ، فالذى يوافق الفاعل يسمى حسنا فى حقه ولا يعنى لحسنه إلا موافقته لغرضه ، والذى ينافى غرضه يسمى قبيحا ولا يعنى لقبحه إلا منافاته لغرضه ، والذى لا ينافى ولا يوافق يسمى عبثا أى لا فائدة فيه أصلا .

والحسن والقبح أمران إضافيان مختلفان بالنسبة لفاعليهما بل قد يختلفان فى الشخص الواحد باختلاف أحواله ، فرب فعل يوافق الشخص من وجه ويخالفه من وجه فيكون حسنا من وجه قبيحا من وجه ، أى أن الأفعال ليست ذاتية الحسن والقبح ، بل هى تحسن أو تقبح لأمور إضافية[1] .

وعلى هذا فالحسن والقبح المراد بهما ملاءمة الطبع والغرض فهما عقليان ، ويذكر الغزالى أن الحسن والقبح قد يراد بهما كون الفعل موجبا للثواب والعقاب والمدح والذم ، فهذا المعنى شرعى ، بمعنى أن التحسين

-علوم الدين والأربعين فى أصول الدين من مؤلفات الغزالى وذلك للتوسع فى معرفة موقفه من هذه المشكلة ، ولقد أشرنا فقط إلى خلاصة موقفه

(١) الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٧٠

والتقبيح فى هذه الأفعال بحسب الشرع ، فالحسن ما أمر الله به ، والقبح ما نهى الله عنه[1] .

وأيضا لمجد الغزالى يقول بالفعل والشرع معا فى معرفة الحسن والقبح ، فهو يذكر أن معيار الاعتدال فى الفضائل العقل والشرع ، فهما اللذان يحددان حد الوسط المعتدل[2] .

ويبدو أن الغزالى وإن كان يقر بدور للعقل فى معرفة الحسن والقبح ، إلا أنه يرى أنه لا يمكن الاقتصار عليه ، وذلك لأن الناس يتبعون فى أفعالهم وأقوالهم للطبع والوهم والخيال ، « أما أتباع العقل الصرف فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى الذين أراهم الله الحق حقا وقواهم على اتباعه »[3] .

وعلى هذا فالناس فى معظمهم يتبعون الطباع والطباع مختلفة ، فتكون أحكامهم على الحسن والقبح مختلفة ، لذا فهم فى حاجة إلى الشرع الذى يحدد الحسن والقبح .

وعلى هـذا فالشرع هو الذى يحدد الحسن والقبح وللعقل مدخل فى ذلك .

السعادة :

يتصل رأى الغزالى فى السعادة برأيه فى المعرفة ، وهو يصنف طالبى المعرفة إلى أربع فرق :

١ - **المتكلمون** : وهم يدعون أنهم أهل النظر والرأى .

٢ - **الباطنية** : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

---

(١) الغزالى : أصول الاعتقاد ص ١٧١ .

(٢) الغزالى : ميزان العمل ص٧٩ .

(٣) الغزالى : أصول الاعتقاد ص١٧٣ ، وأيضا : إحياء علوم الدين جـ١ حيث أشار إلى بيان تفاوت النفوس فى العقل ص٨٧ ٨٩ وأشار فى المنقذ من الضلال إلى اضطرار كافة الخلق إلى النبوة ص٧٨ ٨٤

٣ - **الفلاسفة** : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ - **الصوفية** : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة[١] .

ويفاضل الغزالى بين هذه الدرجات من المعرفة ، ويجعل معرفة الصوفية هى أعلاها مرتبة ، وهى تمثل إيمان العارفين الذين يشهدون الحق دون حجاب ، وهى المعرفة اليقينية ، أما ما دونها من المعرفة ، فهى معرفة العوام الذين يستندون فى إيمانهم إلى الخبر ويصدقون بما أخبرهم به أهل الثقة ، وأيضا معرفة العلماء الذين يصلون إلى إيمانهم عن طريق الاستنباط .

ولن نسترسل فى ذكر رأى الغزالى فى المعرفة ، بل يكفى القول بأن المعرفة الحقيقية هى حياة القلب مع الله ، ومشاهدته بسر القلب ، « ويرفع الله تعالى بعض الحجب فيريهم نور ذاته تعالى وصفاته عز وجل من وراء الحجاب ليعرفوه تعالى »[٢] .

وسعادة الإنسان الحقيقية إنما تكون فى معرفة الله تعالى ، ويدلل الغزالى على ذلك ، بالقول : « بأن سعادة كل شىء ولذته وراحته ، ولذة كل شىء تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شىء ما خلق له ، فلذة العين فى الصور الحسنة ولذة الأذن فى الأصوات الطيبة ، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة ، ولذة القلب خاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى ، لأنه مخلوق لها . . لأن لذة القلب المعرفة »[٣] .

وعلى هذا يمكن القول بأن الغزالى يقر بالسعادة الحسية ، وذلك لقوله بلذة الجوارح التى تكمن فى أداء ما خلقت له ، لكنه يفاضل بين تلك اللذات الحسية وبين اللذات العقلية والروحية والتى أعلاها معرفة الله تعالى ، وهو يربط بين تدرج لذات المعرفة وبين تدرج موضوعاتها ، فكلما كان موضوع المعرفة أعلى منزلة كلما كانت السعادة الحاصلة أعلى درجة ، إلى أن يصل إلى

---

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال ص٣٣ .

(٢) الغزالى : روضة الطالبين ص٤٤ .

(٣) الغزالى : كيمياء السعادة ص ١٣

أشرف موضوعات المعرفة وأعلادرجات السعادة فيقول الغزالى : « كلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر ، ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح ، ولو علم الملك لكان أعظم فرحا ، وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى ، لأن شرف كل موجود به ومنه ، وكل عجائب العالم آثار صنعته ، فلا معرفة أعز من معرفته ، ولا لذة أعظم من لذة معرفته ، وليس منظر أحسن من منظر حضرته »[1] .

ويفاضل الغزالى بين اللذات الحسية وبين اللذات الروحية ، فيقول : « كل لذات الدنيا متعلقة بالنفس وهى تبطل بالموت ، ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب ، فلا تبطل بالموت لأن القلب لا يهلك بالموت بل تكون لذته أكثر وضوؤه أكبر لأنه خرج من الظلمة إلى النور »[2] .

ويحدد الغزالى طريق الوصول إلى السعادة الحقيقية ، وهو يقوم على تحقيق الوسط العدل بين قوى النفس الثلاث ، قوة الغضب ، قوة الشهوة ، قوة العلم ، فتخضع قوتى الغضب والشهوة للحكمة ، وبذا تتحقق الأخلاق الحسنة التى يستطيع أن يبلغ الإنسان عن طريقها السعادة ، وأن يتخلق بأخلاق الملائكة ، فهو يحصر أجناس الأخلاق فى أربعة أجناس هى : أخلاق الشياطين وهى أعمال النفس من المكر والحيلة والغش وغير ذلك ، وأخلاق البهائم وهى أعمال السوء من الأكل والشرب والنوم والنكاح - وأخلاق السباع وهى أعمال الغضب من الضرب والقتل والخصومة - وأخلاق الملائكة وهى أعمال العقل التى هى الرحمة والعلم والخير .

فعلى الإنسان أن يقوم بتخلية نفسه من الأخلاق السيئة المتمثلة فى أخلاق البهائم والسباع والشياطين ، وتحليتها بالأخلاق الحسنة المتمثلة فى أخلاق الملائكة ، عندئذ يبلغ أقصى درجات السعادة[3] .

* * *

(١) الغزالى : كيمياء السعادة ص ١٣ .

(٢) الغزالى : كيمياء السعادة ص ١٣٠ .

(٣) الغزالى : كيمياء السعادة ص١٠٨ - ١٢٢ ، وانظر أيضا مدارج السالكين للغزالى حيث حدد العلوم التى يتم بها السعادة العلمية والعملية ص٩٥ - ١٠٤ .

الأخلاق العملية عند الغزالى

أولى الغزالى العمل أهمية بالغة ، فلقد أشار فى رسالة « أيها الوالد » إلى ضرورة العمل فيقول : « لا تكن من الأعمال مفلسا ، ولا من الأحوال خاليا ، ويتفق أن العلم المجرد لا يأخذ اليد » ويقول أيضا : « لو قرأت العلم مائة سنة وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعدا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل » وأيضا : « ما لم تعمل لم تجد الأجر »[١].

ويرى أن العلم يجب أن يكون موجها إلى العمل الذى يكون فيه مرضاة الله واتباع شريعته ، وأيضا تهذيب الأخلاق وضبط النفس ومنعها من الانسياق وراء الأهواء والشهوات[٢].

وهـذا يشير إلى اهتمام الغزالى بالعمل وأن يكون العلم هاديـا ومرشـدا له ، ومن هنا كان اهتمامه ببيان الفضائل العملية وبيان حقيقتها ، وتحليلها تحليلا نفسيا ومنطقيا بدقة بالغة وذلك حتى يأتيها الإنسان ويتحلى بها ، وأيضا بيان الرذائل وأضرارها حتى يتقيها الإنسان ويقلع عنها ، وهذا يفسر لنا اهتمام الغزالى بالجانب العملى فى الأخلاق اهتماما كبيرا ، وسوف نورد فيما يلى نماذج من الأخلاق العملية التى احتلت جزءا كبيرا فى مؤلفات الغزالى خاصة مجلده الضخم « إحياء علوم الدين » وسوف نورد تلك النماذج بإيجاز وفقا لما يسمح به مجال هذه الدراسة .

* * *

١ - فضيلة الألفة والأخوة :

يرى الغزالى أن فضيلة الألفة ثمرة من ثمار حسن الخلق وعلامة تدل عليه ، أما التفرق فهو ثمرة سوء الخلق وعلامة عليه ، ولقد أورد الكثير من النصوص الدينية والأخبار التى تحث على الألفة وتنفر من الفرقة[٣].

---

(١) الغزالى : رسالة أيها الولد ص١٦٢ .

(٢) الغزالى : رسالة أيها الولد ص١٦٤ وما بعدها .

(٣) الغزالى : الإحياء حـ٢ ص١٥٧ - ١٦٠ .

ولقد بين الغزالى أقسام الألفة والصحبة وبين شروط من تختاره صديقا ، وبين حقوق الصداقة ، وسنتناول ذلك فيما يلى :

١ - **أقسام الصحبة** : يذكر الغزالى أن الصحبة إما أن تقع بالاتفاق ، كالصحبة بسبب الجوار أو الاجتماع فى المدرسة أو السوق ، وإما أن تقع بالاختيـار والقصد ، وهذا النوع هو المقصود بالصحبة إذ أنه يقوم على الاختيار ، ويشمل الأخوة فى الدين ، والأفعال الاختيارية هى التى يقع عليها الثواب ، وهى التى يمكن أن يرغب فيها .

والصحبة عبارة عن المجالسة والمجاورة ، وهذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه ، فإنه غير المحبوب يجتنب ويباعد ولا تقصد مخالطة ، وعلى هذا فالصحبة تقوم على الحب .

ويحلل الغزالى الحب الذى تقوم عليه الصحبة ، ويقسمه إلى أربعة أقسام ، وتختلف أنواع الصحبة تبعا لاختلاف أقسام الحب التى تقوم عليها :

والقسم الأول : حب الإنسان لذاته ، أى أن المحبوب لديك محبوبا فى ذاته ، بمعنى أنك تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له ، فأنت تستحسن صورته الظاهرة أعنى حسن الخلقة ، أو تستحسن صورته الباطنة أعنى كمال العقل وحسن الأخلاق ، وقد تقوم المودة بين شخصين من غير أن يكون هناك حسن الخلقة أو حسن الخلق ، ولكن لمناسبة أخرى غير ذلك توجب الألفة والموافقة وذلك لأن شبه الشىء ينجذب إليه بالطبع ، وقد يكون فى هذا القول أثر أفلاطونى ، لكن الغزالى يورد أساسا إسلاميا للقول بأن الشىء ينجذب إلى شبيهه ، فيورد حديثا نبويا يحمل ذلك المعنى .

وهذا القسم يعنى أن الإنسان قد يحب لذاته لا لفائدة تنال منه فى الحال أو المآل ، بل هو لمجرد المجانسة فى الطباع والأخلاق ، ويدخل ضمن هذا القسم أيضا الحب للجمال إذا لم يكن المقصود به قضاء الشهوة ، لأن الصور الجميلة مستلذة فى ذاتها ، ويستبعد الغزالى من هذا القسم الحب لله لأنه حب بالطبع وشهوة النفس ، وقد يحدث هذا الحب ممن لا يؤمن بالله أصلا[1] .

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ٢ ص١٦١ - ١٦٢ .

القسم الثانى : « أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته فيكون وسيلة إلى محبوب غيره ، والوسيلة إلى المحبوب محبوب ، وما يجب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة »[1] . أى أنه يحب محبوبه لأنه وسيلة يتوصل به إلى نيل جاه أو مال ، وحبه فى الحقيقة هو حب للجاه أو المال . وذلك كما يحب الرجل سلطانا لانتفاعه بماله أو جاهه .

وهذا الحب ينقسم إلى مذموم ومباح « فإن كان يقصد به التوصل إلى مقاصد مذمومة من قهر الأقران وحيازة أموال اليتامى وظلم الرعاة بولاية القضاء أو غيره كان الحب مذموما ، وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح وإنما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد المتوصل إليه فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها »[2] .

والقسم الثالث : أن يحبه لا لذاته بل لغيره وذلك الغير ليس راجعا إلى حظوظه فى الدنيا بل يرجع إلى حظوظه فى الآخرة ، وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز فى الآخرة ، فهذا من جملة المحبين فى الله ، فكل من يعين صاحبه على طاعة الله فإن حبه يكون حبا فى الله ، ويتوسع الغزالى فى ذكر الأمثلة على ذلك الحب[3] .

والقسم الرابع : أن يحب لله وفى الله لا لينال منه علما أو عملا أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته ، وهذا الحب هو أعلى الدرجات ، وهذا الحب لا يتعلق بالمحبوب وحده ، بل يمتد ليشمل كل ما يتعلق بالمحبوب فيقول الغزالى : « فمن أحب إنسانا حبا شديدا أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثنى عليه محبوبه وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه »[4] .

وهذا يشير إلى فرط المحبة واتساع الحب وتعديه من المحبوب إلى ما

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين ص١٦٢ .
(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين حـ٢ ص١٦٣ .
(٣) الغزالى : إحياء علوم الدين حـ٢ ص١٦٣ - ١٦٤ .
(٤) الغزالى : إحياء علوم الدين ص١٦٤ .

يكتنفه ويحيط به ويتعلق بأسبابه بحسب إفراط المحبة وقوتها ، وكذلك حب الله تعالى إذا قوى وغلب على القلب واستولى عليه ، انتهى إلى أن يشمل كل موجود سواه ، لأن كل موجود سواه أثر من آثار قدرته ، فالمحب لله تعالى محب لخلقه لأنهم أثر من آثاره .

وهذا الحب فى الله والذى لا يتعلق بفائدة ترجى من المحبوب فى الحال أو المآل ، يزداد قوة وضعفا بحسب ضعف إيمان صاحبه وقوته وبحسب ضعف حبه لله وقوته ، وذلك لأن أساس هذا الحب يقوم على حب الله ، يقول الغزالى : « فذلك الميل هو حب فى الله ولله من غير حظ فإنه إنما يحبه لأن الله يحبه ولأنه مرضى عند الله تعالى ولأنه يحب الله تعالى ولأنه مشغول بعبادة الله تعالى . . وتتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم فى حب الله عز وجل » .

ويبدو أن الغزالى قد لاحظ بأن ذلك الحب عزيز بين الناس ، فاهتم بإيراد الأدلة على إثباته ، ومن الأدلة عليه هو أننا نحب الموتى من العلماء والعباد والصحابة والتابعين ، بل من الأنبياء المنقرضين ، وهذا يعنى أن الحب ليس مقصورا على حظ ينال من المحبوب فى الحال والمآل[1] .

ب - **صفات من تختاره صديقا** : يرى الغزالى ضرورة أن تتوافر فيمن تختاره صديقا خمس خصال هى :

١ - أن يكون عاقلا ، لأنه لا خير فى صحبة الأحمق ، الذى يوقع صاحبه فى المهلكات ، والمراد بالعاقل هو الذى يفهم الأمور على ما هى عليه ، ولقد ذكر كثيرا من الأقوال التى تحث على صحبة العاقل .

٢ - أن يكون حسن الخلق ، وذلك لأن العاقل قد يدرك الأمور على ما هى عليه ، ولكن تغلبه قوة الغضب أو الشهوة ، ويعجز عن قهر أهوائه وشهواته وتقويم أخلاقه ، فلا خير فى صحبته .

٣ - أن يكون غير فاسق ، لأن الفاسق يصر على ارتكاب المعاصى ، ولا يخاف الله ، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته ، بل هى تتغير بتغير الأغراض .

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ٢ ص١٦٥ .

٤ - أن يكون غير مبتدع وذلك لأنه فى صحبة المبتدع خطر سريان البدعة وتعدى شؤمها إليه ، والمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة ، فكيف تؤثر صحبته ·

٥ - أن يكون غير حريص على الدنيا ، وذلك لأن صحبة الحريص على الدنيا سم قاتل ، لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء ، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ، ومجالسة الزاهد تزهد فى الدنيا ، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين فى الآخرة[1] .

جـ - **حقوق الأخوة والصحبة** : لقد أسهب الغزالى كثيرا فى ذكر حقوق الصداقة وتنوعها ، ويمكن أن نشير إليها بإيجاز :

الحق الأول : فى المال : أن تعطى الصديق عند الحاجة ، دون انتظار طلبه للمعونة وسد حاجته ، وأن تشركه فى مالك ، بل وتؤثره على نفسك ·

الحق الثانى : الإعانة بالنفس فى قضاء الحاجات ، وتقديمها على الحاجات الخاصة : وقيل السؤال ، وهنا يذكر الغزالى أنه ليس المهم أن تقضى حاجة الصديق وتغنيه عن السؤال ، بل إنه تؤدى ذلك بالسرور وإظهار البشاشة ، وأن تتفقد أحوال الصديق وإغنائه عن السؤال ، فكما لا تغفل عن أحوال نفسك يجب أن لا تغفل عن أحوال الصديق ، وأن لا تشعره بأنك صاحب فضل عليه ·

الحق الثالث : يختص بالكلام مع الصديق ، فيما يجب أن تسكت عليه ، وفيما يجب أن تنطق به : فما يجب أن تسكت عليه فهو كل كلام يكرهه جملة وتفصيلا ، والسكوت يعنى كف الأذى الذى يأتى عن طريق اللسان ، فلا تذكر أمام الصديق ما يكرهه ولا يحب سماعه أو يتأذى به ·

وهل يعنى ذلك عدم ذكر مساوىء الصديق ؟

نجد الغزالى يطنب كثيرا فى القول بعدم ذكر مساوىء وعيوب الصديق ، ويعتبر ذلك من الغيبة ، وأيضا يطالب بالعفو عن زلات الإخوان ، وأنك لو طلبت صديقا منزها عن كل العيوب فلن تجد من تصاحبه أصلا ، لكنه يذكر أن تنبه صديقك إلى عيوبه التى لا يعلمها ، فتكون بذلك ناصحا له ، أما العيوب

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ٢ ص ١٧ - ١٧٣ ·

التى يعلمها فلا يجب أن تذكرها له لأنها توحش قلبه ، وليس ذلك من حق الأخوة .

أما ما يجب أن تنطق به ، هو أن تذكر محاسنه ، وجملة أحواله التى يسر بها ، لأن فى إظهارها مشاركة له فى السرور بها ، ولكن ذلك الثناء يجب أن يكون صادقا ، وأن لا تفرط فيه .

ويجب أن تنصح الصديق بلطف ، وإن علمت أن النصح غير مؤثر فالسكوت عنه أولى ، وهذا فيما يتعلق بمصالح أخيك فى دينه أو دنياه ، أما ما يتعلق بتقصيره فى حقك فالواجب فيه الاحتمال والصفح والتعامى عنه .

الحق الرابع : العفو عن الزلات والهفوات : وهذا يعنى أن تعفو عن هفوات الصديق ، وإذا كانت هفواته فيما يتصل بأمر الدين ، فإنه لا يجب مقاطعته لذلك ، لأنك لو قاطعته لأصر على مقارفة المعصية ، وانقطاعك عنه قد يزيد فى استمراره على المعصية ، ولا أمل فى إصلاحه ، أما صلتك به وعدم انقطاعك عنه ، يعنى دوام مراعاتك له ونصحك له ، مما يؤدى به إلى الانقطاع عن المعصية .

وإذا كانت هفوات الصديق فى حقك فيجب احتماله ، والعفو عن تقصيره ، ولقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

الحق الخامس : الدعاء للأخ فى حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله ، وكل ما يتعلق به : فكما تدعو لنفسك يجب أن تدعو لأخيك .

الحق السادس : الوفاء والإخلاص : وهذا يعنى دوام الحب وثباته ، ومراعاة جميع حقوق الأصدقاء ، والتواضع معهم وعدم الترفع عليهم ، ويقول الغزالى : « ومن الوفاء أن لا يتغير حاله فى التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم » .

وليس من الوفاء موافقة الأخ فى مخالفته للحق ، بل الوفاء يكون بمخالفته ، ومن الوفاء أن لا يسمع الغيبة والنميمة فى حق أخيه[1] .

---

(١) الغزالى : الإحياء جـ٢ ص١٧٣ - ١٩١ .

وبعد : فهذا مجمل آراء الغزالى فى الصحبة،وقد اعتمد فيها على أساس تعاليم الإسلام ، فلقد أورد على كل رأى دليلا من القرآن أو السنة أو أخبار التابعين ·

وهذه الآراء تهدف إلى إقامة الصداقة الحقيقية المنزهة عن الغرض ، وأن يعم الحب قلوب الأصدقاء ، وهذا أساس إقامة مجتمع صالح يعمه الحب وكل معانى الخير ·

* * *

٢ - فضيلة الصدق :

يقسم الغزالى الصدق واستعمالاته إلى ستة معان : صدق فى القول ، وصدق فى النية والإرادة ، وصدق فى العزم ، وصدق فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها · وسنتناول شرح هذه المعانى بإيجاز فيما يلى :

الأول : صدق اللسان : وذلك يكون فى الأخبار ، وأيضا يدخل فيه الوفاء بالوعد ·

وإذا كان الصدق واجبا فى جميع ما ينطق به الإنسان من أخبار وأقوال ، إلا أن هناك حالات يتعذر فيها قول الصدق ، لأن فى قول الصدق فى هذه الحالات يعوق المصلحة ويكون ضررا ، لذا فإنه قد رخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كانت له زوجتان ، ومن كان فى مصالح الحرب ، والصدق الذى يراعى فى هذه الحالات صدق النية وإرادة الخير لا صدق القول ، والغزالى يرى أنه لا ينظر إلى صورة الصدق بل إلى معناه فيقول : « لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه » ·

الثانى : الصدق فى الإرادة والنية : وذلك يرجع إلى الإخلاص وأن يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية ، ويجوز أن يسمى صاحبه كاذبا · ولذا فإن الصدق هو صدق التوحيد فى القصد ، فليس المهم هو صدق النطق باللسان بل أن يكون موافقا للنية والاعتقاد ·

الثالث : صدق العزم : وهو أن تكون عزيمته جازمة صادقة ، أما من يكون فى عزمه نوع ميل أو تردد أو ضعف فإن ذلك يضاد الصدق فى العزيمة ، فالصدق يعنى تمام العزيمة وقوتها ، وعلى هذا فالصادق هو من تكون عزيمته فى الخيرات تامة وقوية لا ضعف فيها ولا تردد .

الرابع : الصدق فى الوفاء بالعزم : وهو أن تحقق ما عزمت النفس عليه : « فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال إذ لا مشقة فى الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة » فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق » .

الخامس : **الصدق فى الأعمال** : وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به ، وإذا كانت مخالفة الظاهر للباطن مقصودة كان ذلك رياء ، أم إذا كانت عن غير قصد فإنها تدل على عدم الصدق .

الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات ، وهو الصدق فى مقام الدين : كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر مثل هذه الأمور ، وعلى سبيل المثل يجب أن ينعكس الخوف من الله على أعمال العبد ، فيبعده عن المعصية ويقربه من الطاعة[1] .

* * *

٣ - فضيلة الزهد :

يعرف الغزالى الزهد بأنه : « عزوف عن الدنيا طوعا مع القدرة عليها ، وأصله العلم والنور الذى يشرق فى القلب حتى ينشرح به الصدر ويتضح به أن الآخرة خير وأبقى »[2] ، والزهد هو ترك المباحات التى حظ النفس عدولا عنها إلى الله تعالى ، والاقتصار فى هذه المباحات على الضرورى فقط .

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين حـ٤ ص٣٨٦ ٣٩٣ ، والأربعين فى أصول الدين ص٢٤١ ود. زكى مبارك : الأخلاق عند الغزالى ص١٧٣ ١٧٥ .

(٢) الغزالى : الأربعين ص٢١١ .

ويشترط فى المرغوب الذى يتركه أن يكون خيرا ، ويشترط أن يقدر عليه ، فإن ترك ما لا يقدر عليه محال ، وبالترك يتبين زوال الرغبة .

والزهد درجات **أحدها** : أن يزهد ونفسه مائلة إلى الدنيا ولكن يجاهدها ، وهذا متزهد وليس بزاهد ، ولكنه بداية الزهد .

والثانية : أن تنفر نفسه عن الدنيا ولا تميل إليها ، لعلمه بصعوبة الجمع بينها وبين نعيم الآخرة ، فتسمح نفسه بتركها ، وهذا زهد .

الثالثة : أن لا تميل نفسه إلى الدنيا ولا تنفر عنها ، بل يكون وجودها وعدمها عنده بمثابة واحدة ، فلا يلتفت قلبه إليها رغبة ونفورا ، وهذا هو الأكمل لأنه الذى يبغض شيئا فهو مشغول به كالذى يحبه .

ويقسم الغزالى الزهد باعتبار الباعث عليه إلى ثلاث درجات :

إحداها : أن يكون الباعث عليه الخوف من النار وهذا زهد الخائفين .

والثانية : وهو أعلى منه وهو أن يكون باعثه الرغبة فى نعيم الآخرة ، وهذا زهد الراجين ، والعبادة المبنية على الرجاء أفضل من العبادة المبنية على الخوف ، لأن الرجاء يقتضى المحبة .

والثالثة : وهى أعلاها والباعث عليه الترفع عن الالتفات إلى ما سوى الحق تنزيها للنفس عنه واستحقارا لما سوى الله ، وهذا زهد العارفين .

ويقسم الغزالى الزهد باعتبار ما فيه من الزهد على درجات ، وأعلى درجاته الزهد فى كل ما سوى الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، وأدناها الزهد فى الدنيا خاصة دون الآخرة ، وهذا النوع يدخل فيه كل ما هو حظ للنفس ، وقد يزهد فى بعض الأشياء دون بعض ، فقد يزهد فى المال دون الجاه .

والزهد لا يعنى إماتة النفس والإعراض كلية عن الدنيا ، بل يجب الاقتصار على الضرورى منها ، لأن ذلك يعين البدن على عبادة الله ، ويجب فى استخدامك لهذه الضروريات ألا تقصد التلذذ بها بل تقصد التقوى وعبادة الله ، ويسهب الغزالى فى بيان حد الزهد فى استخدام تلك الضروريات من مطعم وملبس ومسكن ، وغير ذلك ، وهذا الحد ذو ثلاث مستويات متدرجة ،

وعلى سبيل المثال ما يتم به الزهد فى المطعم ، فمن يدخر من غذائه لعشائه فهذه الدرجة العليا ، ومن يدخر لشهر أو أربعين يوما فهذه الدرجة الثانية ، ومن يدخر لسنة فهذه الدرجة الثالثة وهى رتبة ضعفاء الزهاد وأما من زاد فى ادخاره عن سنة فلا يسمى زاهدا - ويبدو فى هذا المثال المبالغة فى الزهد .

والواقع أن الأساس الذى يبنى عليه الغزالى رأيه فى الزهد هو عدم انشغال قلب العبد بشىء من حظوظ الدنيا ، وحبه لها ، مما يؤثر ذلك على إقباله على الله وأن يعمر قلبه بحب الله وطلب الآخرة[1] .

* * *

(١) الغزالى: إحياء علوم الدين حـ ٤ ص ٢١٦ ٢٤٣ ، والأربعين ص ٢٠٨ - ٢١٧ .

obeikandl.com